بلاغة السكوت (١)

«للسكوت وقت وللتكلم وقت» (جا٣: ٧)

البلاغة هي القدرة على «ابلاغ» المعنى للمتلقِّي، وكلما كان الإنسان قادراً على توصيل المعنى الذي يقصده للآخرين بدقة وبوضوح كلما كان «بليغاً»، ولا شك أن البشر يتفاوتون في درجة بلاغتهم تفاوتاً كبيراً، ففئة الأدباء والشعراء هم أكثر الناس قدرة على تبليغ المعاني والمشاعر التي تختلج داخلهم للآخرين، يمتلكون أدواتهم من الألفاظ والتشبيهات والصور الذهنية التي يستخدمونها بحِرَفية وبراعة لتوصيل أفكارهم للآخرين، فالأديب الحقيقي اذا قرأت له أو استمعت إليه تجد نفسك قد امتلأت بفكر أحاسيس ووجهة نظر جديدة لم تكن تمتلكها من قبل، ولكن هناك آخرون أقل بلاغة من هؤلاء يجدون صعوبة في توصيل ما يقصدونه للآخرين ولا تستطيع التواصل معهم إلا بمعاناة، ناهيك عن بعض الناس الذين تنقصهم البلاغة تماماً حتى أنك تصاب بالارتباك والضجر إذا حاولت فهمهم وبالتالي تفضِل الابتعاد عنهم وتجنُّب الحديث معهم!!

وللبلاغة وسائط كثيرة وإن كان أشهرها هو الألفاظ والكلمات، حتى ظن البعض ان فن البلاغة قاصر على الأدب المكتوب، لكن هناك مَن يستطيع أن يكون بليغاً ويعبِّر عما بداخله بتعبيرات وجهه أو بابتسامته الرقيقة أو بصرخة غضب مكتوم أو بحركة معبِّرة من جسده، حتى أن الكثيرون من أشقائنا في المجتمع من أصحاب الإعاقة أصبحوا يتواصلون بلغة الإشارة التي تتكون من مجموعة من الحركات الجسدية المقنَّنة، ومن أشهر فنون البلاغة هو فن الباليه الذي يعتمد على الموسيقى المصاحبة لحركات الجسد الرشيقة للتعبير عن المعاني المقصودة دون استخدام للكلمات والألفاظ إلا في أضيق الحدود.

لكن ما لا يعلمه الكثيرون هو أن السكوت أحياناً يكون أكثر بلاغةً من أي كلمات أو تعبيرات، والشخص الحكيم حقاً يعلم أن للسكوت وقت كما أن للتكلُّم وقت، والبليغ فعلاً يعرف أن يعبِّر بسكوته عما لا تستطيع الكلمات أن تعبِّر عنه، وما لا يعلمه الكثيرون أيضاً أن الجاهل هو الذي يُكثر الكلام (جا١٠: ١٤) كما أن كثرة الكلام لا تخلو من معصية (أم١٠: ١٩) لكن مَن يحب أن يتخذ موضع المُعلِّم ويتكلم كثيراً يأخذ دينونة لنفسه لأنه في أشياء كثيرة نعثر جميعنا (يع٣: ١، ٢)

وللأسف فإن احدى الآفات التي أصابت مجتمعنا المصري في الآونة الأخيرة هي كثرة الكلام، وللأسف أيضاً أن الكنيسة لم تنجو من هذه الآفة المدمرة، أصبح الكلام سلعة تُباع وتُشترى، بل أصبح كلام حرفة للبعض تجلب لهم الرزق، وأصبح التنافس بين الجميع على مَن يستطيع أن يتكلم أكثر من الآخرين ومَن يرفع صوته فوق الآخرين، أصبحنا نشعر أننا في «مكلمة» كبيرة تبتلع الأمة كلها وتصيبها بالارتباك والانقسام والتشرذم، كل هذا يحدث بينما الواقع على الأرض يتدهور من سيء إلى أسوأ في كل يوم، مما يعطي مؤشراً واضحاً لكوننا لا نفهم القيمة الحقيقية للكلام والهدف منه ومدى جدواه، ومما يؤشِّر أيضاً لكوننا نحتاج أن نفهم قيمة السكوت وبلاغته وتوقيت اللجوء إليه، وهذا ما سنحاول أن نناقشه في المرات القادمة مسترشدين بكلمة الله التي تُنير وتُعقِّل الجُهَّال (يتبع)

بلاغة السكوت (٢)

«يا رب لم يرتفع قلبي ولم تستعلِ عيناي ولم أسلك في العظائم ولا في عجائب فوقي، بل هدَّأت وسكَّت نفسي كفطيم نحو أمه، نفسي نحوك كفطيم» (مز ١٣١: ١، ٢)

كثيراً ما تمر حياتنا بظروف لا نفهمها، ونجتاز في أحداث غريبة لا نعرف القوى المتحكمة فيها ولا المعاني التي تقف وراءها، والحقيقة أننا كائنات ضئيلة الشأن جداً تتحكم فينا قوى خفية تحركنا مثل قطع الشطرنج على رقعة صغيرة لتحقيق أهداف خفية لا ندرك كنهها، والإنسان الذي يظن في نفسه أنه يفهم مجريات الأمور وأبعادها هو نسان مرتفع القلب ومنتفخ من قِبل ذهنه الباطل، والإنسان الذي يتكلم كثيراً في محاولة لشرح الأحداث ووضع التفسيرات لكل ما يجري حوله هو في الحقيقة إنسان مغرور لدرجة تثير الشفقة والضجر، فالإنسان لا يدرك إلا نسبة ضئيلة جداً مما يحدث في حياته وهو في معظم الوقت مفعول به لا فاعل، تحركه قوات أعلى منه وأكثر ذكاء مما يتصور، ومحاولة الاطلاع على هذه العجائب والعظائم التي فوقنا محاولة فاشلة بكل المقاييس إلا إذا أنار الروح القدوس أعيننا وجلى بصيرتنا لنبصر (ولو بقدر محدود) هذه العوالم الخفية.

وهذه القوى الخفية التي تتحكم في حياتنا تنقسم إلى قوى شريرة وأخرى صالحة، فكما ان هناك مملكة ضخمة للشر تسود وتعمل في أبناء المعصية لتتميم مشيئة الشيطان، هناك أيضاً ملكوت الله الذي يعمل من خلال أبنائه لتتميم مشيئة الله الصالحة على الأرض، فسلطان الله على البشر ومحاصرة روح الله للإنسان في كل أحواله وأوضاعه أمر يفوق خيالنا ولا نستطيع تصوره، قال عنه داود «من خلف ومن قدام حاصرتني وجعلت علي يدك، عجيبة هذه المعرفة فوقي ارتفعت لا أستطيعها، أين أذهب من روحك ومن وجهك أين أهرب؟» (مز ١٣٩) إن معرفة الله لتفاصيل حياتنا الدقيقة وتحكّمه فيها أمور ترتفع فوق ادراكنا ولا نستطيع فهمها بالكامل واستيعابها.

لكننا للأسف لا نكفُّ أبداً عن حماقة اعتقادنا أننا نفهم كل شيء!! نرتئي دائماً فوق ما ينبغي أن نرتئي ونظن في أنفسنا أننا نملك ناصية المعرفة ومفاتيح الفهم، حتى أننا لا نتوانى عن محاولة شرح الأحداث والتفاصيل التي تمر بها حياتنا وحياة المحيطين بنا، فننسب هذا للشيطان وذاك لله وتلك للإنسان...، ونتقدم أكثر في كبريائنا فنُسدي النصيحة للواحد بأن يفعل هذا وللآخر بأن يتصرف هكذا، وكأننا المدركين لبواطن الأمور والفاهمين لمسارات الأحداث والمطّلعين على نهاياتها، لعن الله كبرياء الإنسان وغروره في كل زمان ومكان!!

لكن الأكثر مدعاة للأسف ا ندخل إلى محضر الله بذات الروح المتعالية التي تظن أنها تعرف كل شيء وهي ، الغالب لا تعرف أي شيء، ونحن أمام الله لا نكف عن الكلام في ما ينبغي أن يكون وما لا ينبغي أن يكون، نحاول أن نملأ وقت صلاتنا بأحاديث عن ما يصح وما لا يصح، عن ما ينبغي أن يفعله الله وما لا يجوز أن يسمح به، نحمل حكمتنا ونرفعها بكبرياء أمام عرش الله، بل قد تجدنا ي ذات الوقت نشكِّك في حكمة الله وصواب أفعاله بتصلّف وغباء لا نُحسد عليه، غباء الجُبلة حين تحاول التعديل على جابلها والتشكيك في حكمته!!

داود يعلمنا أنه عندما نمر بأحداث لا نفهمها ويقصر إدراكنا على الإلمام بأبعادها فهذا هو الوقت المناسب لنتعلم السكوت أمام الله!! عندما تدخل النفس إلى محضر الله وترفع إليه عينين دامعتين ولا تنطق بكلمة فهذا السكوت هو أبلغ من أي كلام، السكوت هنا يحمل معانٍ لا تستطيع الكلمات مهما كانت بلاغتها أن تحملها، عندما هدئ ونسكِّت نفوسنا أمام □ فلسكوت هنا يحمل معنى إدراكي أني صغير جداً عن فهم ما يجري حولي، صغير مثل الفطيم الذي لا يعرف من الحياة إلا صدر أمه وبعض اللعب والعرائس، ولكني رغم صغري المتناهي أؤمن أن ليّ إلهاً يرعاني كالأم الرؤوم التي تفوقني فهماً وإدراكاً، الأم التي لم ولن ينقصها قط المحبة والإرادة أن تفعل لي أفضل الأشياء وتختار لي أفضل المسارات، ذا السكوت يقول أني لن يرتفع قلبي وتستعلي عيناي وأخوض في

ائم والعجائب التي ترتفع فوقي، لن أحاول أن أتكلم بجهل عن الأسرار الروحية التي تجري في السماويات طالما الله لم يعلنها لي، السكوت يقول اني لن أحاول بغباء أن أشتكي على صلاح وحكمة الله تماماً مثل الفطيم الذي لا يمكنه مهما كان جهله وغباؤأن يشكِّك في صلاح أمه التي أرضعته كل الخير في كل أيام حياته، لسكوت هنا يحمل الكثير من المعاني التي ربما نتكلم عنها في المرات القادمة (يتبع)

فخرى كرم

بلاغة السكوت (٣)

«في كل هذا لم يخطئ أيوب بشفتيه...

بعد هذا فتح أيوب فاه وسبَّ يومه» (أي٢: ١٠، ٣: ١)

تعرَّض أيوب لسلسلة من الأحداث المتوالية ذات السيناريو المتشابه بما يشي بأنها أحداث مدبَّرة وليست عشوائية، أحداث يقف وراءها عقل واحد جبار وذراع قادرة على الشر، أحداث تؤكد أن مَن يقف وراءها يبغض أيوب بغضة شديدة ويريد أن يسحقه سحقاً، أحداث حولته في فترة زمنية قصيرة من أغنى بني المشرق إلى أكثرهم مدعاة للشفقة والرثاء!!

لم يكن الإعلان الروحي والكتابي كاملاً في وقت أيوب بل كانت هناك معرفة بدائية عن وجود إله يتحكم في الكون، لم يكن هناك إعلان عن الشيطان الذي يشتكي على أبناء الله ليلاً ونهاراً، ولا عن قدرة مملكته الشريرة على تحريك البشر والرياح وكل الظروف لصناعة الموت والدمار، ولا عن قدرة هذه القوات الشريرة على تسبيب الأمراض والعلل في جسد ونفس الإنسان.

عندما نقرأ سفر أيوب يكشف لنا الوحي عما كان يدور في السماويات ـا ترتب عليه من أحداث في لأرض، لكن هذه الحقائق لم تكن واضحة في ذهن أيوب ولا في روحه، معرفته البدائية عن الأمور الروحية لم تستطع أن تفسر له ما يحدث، عدم معرفته بوجود مملكة شريرة في السماويات جعله ينسب كل ما يجري لله وحده، وهو نفس التوجُّه الفكري الذي اتخذه أصدقاؤه عندما حاولوا أن يفسروا ما جرى له، وهذا القصور في المعرفة الروحية خلق للجميع معضلة صعبة تستعصي على الحل، ألا وهي: كيف يكون الله بهذه القسوة غير المبرَّرة؟ وكيف يمكن الجمع بين صورة الله الجميلة في خيال البشر وبين المفاسد التي تحدث في أرض الواقع؟ كيف يظل الإنسان يؤمن بعدالة الله ومحبته في ظل المآسي التي يتعرض لها كل يوم؟!

وأفضل حل لهذه المعضلة هو أن يعترف الإنسان بعجزه عن حلها!! كم هو مريح للإنسان أن يقرُّ بقصور معرفته ومحدودية إدراكه، كم هو جميل أن يتواضع الإنسان أمام جبروت هذه الأحداث القاهرة ويسلِّم بجهله وعجزه عن فهم ما يدور حوله، كم هو رائع أن يتخذ الإنسان موقف الفطيم الضعيف الذي يلوذ بحضن أمه ويجد فيه كل اعزاء رغم عدم فهمه لما يدور حوله، كم هو حسن أن يتعلَّم الإنسان كيف يهدِّئ ويسكِّت نفسه ويتجنب كبرياء النفس ـذي يدفعه للخوض بحماقة في العظائم والعجائب التي فوقه، إن السكوت المصحوب بالتسليم لإرادة وحكمة الله في هذه المواقف هو الأكثر بلاغة من أي كلام، السكوت المقترن بالثقة في صلاح الله والانتظار لإعلانه هو الأكثر مرضاة لله من أي مماحكات كلام باطلة.

لكن يبدو أن السكوت ليس أمراً سهلاً، بل أنه أحياناً يكون شديد الصعوبة!! لقد استطاع أيوب أن يسكت لبعض الوقت ولم يخطئ بشفتيه، وفي هذا الوقت القصير كان مازال متمسكاً بكماله أمام الله مسلماً بحكمة الله وصلاحه، لكن تحت وطأة المرض الذي مسّ جسده وعيون أصحابه الممتلئة بالشك والاتهام قرر يوب أن يتكلم ويتصدى لمحاولة تفسير ما يجري له من أحداث، وهنا فقط بدأ التدهور من خطأ إلى خطأ ومن حماقة إلى أخرى، وكشفت كلماته عن مكنون قلب الإنسان الجاهل بطبيعة الله والممتلئ بالشك في صلاحه، للأسف لم تستمر بلاغة السكوت في حياة أيوب أكثر من سبعة أيام وبعدها بدأت حماقة الكلام!!

ولكن لهذا حديث آخر (يتبع)

بلاغة السكوت (٤)

«كُفَّ عني لأن أيامي نفخة!! ما هو الإنسان حتى تعتبره؟ وحتى تضع عليه قلبك؟ وتتعهَّده كل صباح وكل لحظة تمتحنه؟ حتى متى لا تلتفت عني ولا ترخيني ريثما أبلع ريقي؟»(أي ٧: ١٦-١٩)

قد يوجد في أرواحنا قدراً من محبة الله ورغبة في السير معه والجلوس تحت ظله، وهذه المحبة هي من عمل روح الله في داخل أرواحنا، لكن هذا لا ينفي أنه في ذات الوقت يوجد جهل مطبق بالله في داخل أنفسنا، الاستنارة التي يصنعها الروح في داخل أرواحنا لا تصل بسهولة إلى أعماق مشاعرنا وأفكارنا، لأن لكل من الروح والنفس طبيعة مختلفة، أرواحنا تستقبل بسهولة عمل الروح القدس وإعلاناته بينما نفوسنا تجد صعوبة شديدة في ذلك، أرواحنا قريبة للروح القدس بحكم طبيعتها المأخوذة منه أما نفوسنا وأجسادنا فهي قريبة أكثر للعالم المادي وتمتلئ بسهولة بمنطق الإنسان وأفكاره، لذلك كثيراً ما نرى بداخلنا صراع بين أرواحنا ونفوسنا، فبينما أرواحنا تريد أن تأخذنا بقرب الله نجد أنفسنا تبتعد بنا بعيداً عنه!!

عندما تعرَّض أيوب للتجربة المريرة خرج من داخله موقفان: أحدهما من روحه التي تحب الله وتثق فيه والآخر من نفسه التي تجهل كل شيء عن الله وتتعامل معه بمنطق الإنسان وأفكاره، وعلى مَن يقرأ أقوال أيوب أن يميز كل الوقت بين ما تنطق به روح أيوب وبن ما تقوله نفسه، فالاختلاف بينهما كبير ويدعو للدهشة!!

أمام التجربة اتخذت روح أيوب موقف السكوت البليغ الذي يعني التسليم لمشيئة الله وقبول كل الأمور من يديه بشكر، السكوت الذي يعني تقديم المجد لله سواء أعطى أو أخذ، السكوت الذي يعني اعتراف الإنسان بعجزه عن فهم كل ما يجري حوله وجهله بالكثير من القوى المحيطة بحياته والمؤثرة فيها، السكوت الذي ينشر عبق الطاعة وبخور التسليم ليغطي على دخان الشكوى الذي يريد العدو أن ينشره في الأجواء المحيطة، السكوت الذي يجعل السلام يسود في المنطقة التي أراد العدو أن يعمَّها الفوضى والاضطراب.

لكن هذا العبق الجميل الخارج من روح أيوب لم يستمر طويلاً، فبعد سبعة أيام بدأ يتكلم بما في نفسه ومشاعره، بدأت النفس الإنسانية تتكلم بمنطقها وتستعرض أفكارها، فوجدنا صبغة الكلام تختلف ووجهة النظر تتغير، تبدلت نغمة الخضوع والتسليم في كلامه ووجدنا نغمة الرثاء للذات تملأ أقواله، وعوضاً عن صبغة تمجيد الله التي صبغت أيام التجربة الأولى رأينا صبغة الشكوى من الله وتصويره كإله جبار يتسط على حياة الإنسان بعنف غير مبرر، وبدل اشتياق الروح للاقتراب من محضر الله والتمتع بلمسته رأينا النفس تريد الابتعاد عنه حتى أنها تقول بجسارة غريبة: «كفّ عني..حتى متى لا تلتفت عني ولا ترخيني»!!

روح أيوب ترى الله إلهاً صالحاً ممجداً حين يعطي وحين يأخذ بينما نفسه التي تربَّت على أفكار العالم ترى الله إلهاً قاسياً ممتلئاً بالعنف والشدة، روح أيوب تشعر بالأمان في عين الله الساهرة عليها أما نفسه فتتمنى أن تلتفت عين الله بعيداً عنها وتتركها، روح أيوب تشعر بالامتنان والفخر لأنه عاش حياته في رفقة هذا الإله العظيم وتعترف انها اخذت منه الكثير من الخير، أما نفسه فتشعر بالمرارة الشديدة تجاه حياته وتتساءل لماذا أعطاه الله حياةً ولماذا لم يمت وهو بعد جنين في رحم أمه، وكلماته هذه تعني أنه لم يجد في حياته الطويلة مع الله يوماً واحداً يستحق أن يحياه، كما لو أن هذا الإله العظيم لم يضف لحياته أي شيء جميل يجعل الحياة تستحق أن تُعاش!! أليست هذه الكلمات مملوءة بحماقة شديدة وجحود ونكران جميل مفرطين؟! كيف يخرج من الإنسان الواحد ماءً عذباً منعشاً وماءً عكراً شديد المرارة، كيف تهدأ الروح وتسكت بينما تصر النفس أن تملأ الأجواء ضجيجاً وتنشر دخان الشكوى وضباب الجهل في كل مكان؟! لكن على كل حال هذا هو الإنسان في كل زمان ومكان، وإختبارنا اليوم لا يختلف في شيء عن إختبار هذا القديس الذي عاش في زمان قديم! **(يتبع)**

بلاغة السكوت (٥)

«ولكني قد نطقت بما لم أفهم، بعجائب فوقي لم أعرفها» (أي٤٢: ٣)

خطأ الكلام لا يكمن عادة في الكلمات المجردة التي ننطق بها بل في دافع الكلام وروحه وهدفه، يكمن في اعتقاد الإنسان انه يفهم كل شيء وأنه مؤهل لإسداء النصائح والتوجيهات، الإنسان يظن أن بعض المعلومات السطحية التي عنده تعطيه الحق أن يصدر قرارات وأحكام على الظروف والأشخاص وحتى على □ نفسه، وكل من أيوب وأصحابه الثلاثة وقع في هذا الخطأ.

أيوب أصدر أحكاماً على حياته وعلى يوم ميلاده، حَكَم على حياته بأنها لا تستحق أن تُعاش وأن قرار مجيئه إلى الدنيا كان قراراً خاطئاً، ورغم أنه تحاشى في البداية أن يتهم □ه بالقساوة بكلمات صريحة وتجنب أن ينسب الخطأ لله بشكل مباشر إلا أن روح الكلام وهدفه الخفي هو أن ينسب انعدام الحكمة والقساوة لشخص □!! إذا كنا نؤمن أن الميلاد والحياة والموت بيد □ فتكون شكايتنا على يوم ميلادنا أو على ظروف حياتنا هي شكاية على □ نفسه!! بعض الأحداث الخارجية التي حدثت لأيوب جعلته يعتقد أنه مؤهل لإصدار الأحكام على الحياة والأيام والميلاد والموت وهي كلها أمور من شأن □ وحده الذي بيده آجالنا، أيوب لا يفهم لماذا سمح □ له أن يأتي إلى هذه الحياة ولا لماذا سمح له بالظروف التي مرت به ولا يعلم ما سوف تنتهي إليه الأحداث في المستقبل ولا البركة التي ذخرها □ له في نهاية الأيام، ورغم كل هذا الجهل وعدم الفهم إلا أنه تكلم بما لم يفهم وخاض في عجائب فوقه لم يعرفها.

المدقق في كلمات أصحاب أيوب الثلاث يكتشف أنها خالية من أي أخطاء لاهوتية أو تعليمية، بمنطق الكلمات المجردة هي كلمات صحيحة تحمل معانٍ ومفاهيم في غاية الروعة، كلماتهم تحاول أن تبرر □ وتنزهه عن كل خطأ أو ظلم، أقوالهم تعتبر نموذجاً للخطاب الديني الممجد لله والداعي لطريقه القويم، ومع ذلك نجد □ يدين أقوالهم هذه ويأمرهم أن يعتذروا عنها لأيوب ويطلبوا صفحه عنهم وصلاته لأجلهم!! أين الخطأ إذاً؟! مرة أخرى نؤكد أن الخطأ ليس في نص الكلمات أو فحواها بل في إدعاء الفهم لبوطن الأمور وإصدار الأحكام بدون معرفة.

رؤية أصحاب أيوب للأحداث التي حاقت به جعلتهم يعتقدون أنه بلاشك ينال عقوبة من □ عن شرور مستترة، وبدأوا يتكلمون معه بروح المعلم الذي يفهم ما يجري وهم في الحقيقة غير فاهمين لحقيقة ما جرى لأيوب، وكان كلامهم بدافع إلصاق التهم بأيوب ودفعه دفعاً للتوبة عن شر غير موجود ولا يدري أيوب عنه شيئاً، لقد كانت كلامتهم صحيحة وتحمل تعاليم رائعة لكن مع ذلك كانت أحاديثهم خاطئة ينبغي الإعتذار عنها!! **لكي يكون كلامنا صحيحاً لا يكفي أن يكون مضمونه صحيحاً بل ينبغي أن يكون مضمونه صحيحاً ويُقال للشخص الصحيح** في **التوقيت الصحيح**!! كلام أصحاب أيوب كان كلاماً يحمل مضموناً صحيحاً لكنه لم يُقال للشخص الصحيح ولا في التوقيت الصحيح، لم يكن أيوب هو الشخص الخاطئ الذي في مخيلتهم ولم يكن في هذا التوقيت يحتاج إلى مَن يُكيل له الإتهام ويضيف على ضيقه ضيقاً، كان أيوب في هذا الوقت يحتاج لمَن يرثي له ويجلس بجانبه في سكوت بليغ لكي يساعده أن يهدأ ويرفع نظره إلى □ لعل الله يكشف له سر البلاء الذي أصابه، لكن الإنسان في غروره يأبى أن يسكت ولا يرضى إلا بأن يلعب دور الفاهم والعارف ببواطن الأمور.

لقد استذنب أيوب الرب لكي يبرر نفسه وكان في هذا مخطئاً، ولقد إستذنب الأصدقاء الثلاثة أيوب لكي يبرروا □ه وكانوا في هذا مخطئين أيضاً!! لم يكن ثمة خطأ من جانب □ أو أيوب، لقد كان الله باراً في كل ما سمح به وكان أيوب أيضاً باراً في حدود فهمه وعلمه كانسان، لقد دخل أيوب التجربة باراً بشهادة الرب وخرج منها وهو أكثر براً!! لم يكن هناك خطأ أصلاً يحتاج إلى تبرير سواء من جانب □ أو من جانب أيوب، هل تتصور أن كل المجادلات والحوارات في سفر أيوب هي في الحقيقة محاولة لتبرير خطأ غير موجود أصلاً!! لكن هذا هو دأب الإنسان وولعه الشديد بالكلام وإدعاء الفهم، وللحديث بقية (يتبع)

بلاغة السكوت (٦)

«كشاة تُساق إلى الذبح وكنعجة صامتة أمام جازيها فلم يفتح فاه» (أش٥٣: ٧)

كان سيدنا عظيماً وبليغاً في سكوته تماماً كما كان عظيماً وبليغاً في كلامه، كان نموذجاً للإنسان الكامل الذي يعرف متى يتكلم ومتى يسكت، حتى استحق أن يُذكر صمته في النبوة قبل مجيئه بمئات السنين.

عندما تعرَّض أيوب لمحاكمة أصحابه واتهاماتهم لم يستطع أن يظل معتصماً بالصمت بل اندفع يتكلم لكي يبرِّر نفسه وينفي عنها الاتهام، وفي معرض دفاعه عن نفسه وجدنا الكثير من القصور بل والحماقة في الكلام، وهذا القصور وتلك الحماقة موجودة بكثرة في داخل كل واحد منا لكن ربما تحتاج إلى ظروف ضاغطة لكي تخرجها للعلن.

ولقد تعرَّض سيدنا لمحاكمة أكبر بكثير من محاكمة أيوب ووجِّهت له اتهامات أخطر وأفظع من تلك التي وُجِّهت لأيوب لكنه مع ذلك استطاع أن يظل متمسكاً بصمته المملوء إيماناً وتسليماً لمن يقضي بعدل، أصحاب أيوب تكلموا معه بالمنطق والحجة فلم يحتمل كلماتهم أما سيدنا فقد تكلم معه الحكام بالأكاذيب والإهانات والشتائم، واستخدموا التهديد والسخرية والاستهزاء، ولجأوا للعنف والضرب والتعذيب، وانتهوا بالصلب والموت والسحق، لكن رغم كل ذلك لم تخرج من فمه كلمة لا تمجِّد الله أو تنسب له حماقة، ولقد كان هذا الصمت شديد البلاغة وعميق الدلالة، يحمل الكثير من المعاني التي ينبغي أن نتأمل فيها قليلاً:

† **أولاً: لا ينبغي التكلم حين لا يكون للكلام قيمة!!** قيمة الكلام أن يكون له تأثير ايجابي في نفوس سامعيه، لقد قال ربنا «ان كل كلمة بطَّالة (بلا فائدة) يتكلم بها الناس سوف يعطون عنها حساباً يوم الدين» (مت١٢: ٣٦) ويذكر الرسول بولس نفس المعنى في قوله «لا تخرج كلمة ردِّية من أفواهكم بل كل ما كان صالحاً للبنيان حسب الحاجة كي يعطي نعمة للسامعين» (أف٤: ٢٩) ولكي يكون للكلام قيمة إيجابية ينبغي أن تتوفر النية للاستفادة من الكلام (ولو في حدها الأدنى) في نفوس السامعين، كان الرب دائماً يتوجه بكلامه لمن عندهم «أذن للسمع» أي لديهم ولو الحد الآدنى من الرغبة في الاستماع والاستعداد للاستفادة من الكلام.

في أثناء محاكمة الرب بل وقبل المحاكمة بأسبوع لم يعد القادة اليهود «أذن للسمع» ليسمعوا أقوال الرب، لقد عقدوا النية أن يقتلوه، وفي كل مرة كانوا يتكلمون معه لم يكن الهدف أن يستفيدوا من أقواله بل أن يصطادوه بكلمة لكي يشتكوا عليه، كانوا يستدرجوه لكي يتكلم ونيتهم معقودة على اتخاذ كلماته حجة ضده، أياً كان الكلام الذي سيقوله كان سيستخدم ضده، وبالتالي فأي كلمات سيقولها الرب في موقف المحاكمة لن يكون لها تأثير ايجابي في نفوس سامعيه، لذلك قرر الرب أن يصمت لكي يعلمنا درساً مهماً وهو أننا إذا استشعرنا أن كلماتنا لن تؤثر في شيء فلا داعي للنطق بها، فما قيمة كلمات تنطق بها أمام قاضٍ قرَّر بالفعل ما سيصدره من أحكام؟! وما الهدف من كلمات تقولها إذا كان المستمعون قد عقدوا العزم ألا يستفيدوا منها؟! وللحديث بقية (يتبع)

بلاغة السكوت (٧)

«وسأله بكلام كثير فلم يجبه بشيء» (لو٢٣: ٩)

كـان هيـرودس يريـد مـن زمـان طويـل أن يـرى يسـوع لكـن كبريـاءه الملكـي منعـه مـن أن يـذهب إليـه، كـان يريـد أن يـراه ويسـمعه ويبصـر آياتـه لأن ضـميره المُثقَّـل بمقتـل المعمـدان كـان يطـارده بفكـرة أن يسـوع لـيس سـوى يوحنـا المعمـدان وقـد عـاد للحيـاة ولـذلك تُعمـل بـه القـوات (مـت١٤: ١، ٢) وعنـدما حانـت الفرصـة وأرسـل بـيلاطس إليـه يسـوع مقيـداً ومتهمـاً فـرح هيـرودس جـداً واعتبـر أن الوقـت قـد حـان لكـي يسـتريح ضـميره مـن عنـاء الشـكوى [redacted] ويقف علـى حقيقـة هـذا الشـخص الغريـب الـذي سـمع عنـه كثيـراً، ولـذلك مـا إن وقـف أمامـه يسـوع حتـى بـادره بأسـئلة وكلام كثير، ولكن كانت المفاجأة أن يسوع التزم الصمت ولم يجبه بشيء!!

ـدة أمـور كانـت تـدفع الـرب للـرد علـى أسـئلة هيـرودس، أولهـا وجـوب الخضـوع للسـلطة الحاكمـة، فـالرب يقـف هنـا موقـف المـتهم أمـام الحـاكم الـذي يملـك سـلطة ادانتـه أو تبرئتـه، والمـتهم فـي تلـك الأزمنـة القديمـة لـم يكـن

تـرف أن يختـار بـين أن يجيـب أو لا يجيـب عـن أسـئلة الحـاكم، وثانيهـا الرحمـة المعروفـة عـن ربنـا والتـي تدفعـه لـ نجـاوب مـع نفـس متعبـة تحتـاج أن تسـمع منـه مـا يشـبع فضـولها ويبـدد حيرتهـا، وثالثهـا أن يتجنـب إثـارة غضـب الثعلـب الكـامن فـي أعمـاق هـذا الحـاكم المنفلـت الأخـلاق فـالرب يعلـم تمامـاً أن بـداخل هيـرودس وحشـاً إذا غضـب سـيتحول إلـى الـنهش والإهانـة بـدون وازع مـن عقـل أو ضـمير، ورغـم كـل هـذه الـدوافع يفاجئنـا الـرب بالصـمت التـام!! كـان سـكوت سـيدنا فـي هـذا الموقـف بليغـاً جـداً كمـا تعودنـا منـه، وإن كنـا قـد تعلمنـا منـه درس ألا نتكلم حين لا يكون للكلام فائدة ففي هذا الموقف نتعلم منه درساً آخر:

✝ **ثانياً: لا كلام جديد مع مَن استهان بالكلام الأول!!** في يوم من الأيام أرسل الله يوحنا المعمدان ووضع في فمه رسالة خاصة لهيرودس الملك الماجن، كان ملخص الرسالة أنه: لا يحلُّ أن تكون له هيروديا امرأة أخيه (لا١٨: ١٦) ولا شك انها نعمة جزيلة وامتياز عظيم أن يرسل الله رسالة إلى إنسان لكي يمنعه من الانزلاق إلى مهاوي الخطية والفساد، وأن تكون هذه الرسالة على فم نبي هو الأعظم بين المولودين من النساء فهذا يجعل النعمة مضاعفة والامتياز أعظم، لكن [redacted] هيرودس لفرط ضعفه أمام شهوته قرر ألا يخضع لهذه الرسالة السماوية، ولشدة خضوعه لسلطان هيروديا امرأة أخيه فيلبس قرر أن يلقي بيوحنا في السجن لكي لا يعود يتجرأ ويتكلم معه بمثل هذه الرسالة، وفي يوم أسود من تاريخه وتحت تأثير نفس الشهوة ونفس الامرأة قرر أن يقطع رأس يوحنا المعمدان، الرأس التي اهتمت بصالح حياته الزمنية والأبدية، الرأس التي [redacted] حملت له فكر الحق الإلهي وطريق البر العملي، هذه الرأس المباركة قرر هيرودس أن يمد يده الأثيمة ويقطعها، لقد مزَّق الرسالة وداسها بقدميه ثم تحوَّل ليقطع رأس الرسول لكي لا يعود يحمل له المزيد من الرسائل الإلهية!!

وتدور الأيام ويجد هيرودس نفسه أمام رب يوحنا المعمدان ومرسله، فيسوع هو صاحب الرسالة التي أعطاها ليوحنا وأرسله أمامه ليُعدَّ له الطريق، انه بذاته جوهر الحق الذي نطق به يوحنا ورفضه هيرودس ومزَّق المتكلم به شرَّ تمزيق، والآن هيرودس يتكلم كثيراً ويحاول أن يجعل يسوع يتكلم معه، يسأله كثيراً ويُبدي شعوراً مزيفاً بأنه يريد أن يسمع منه إجابات شافية وحقائق وافية، لكن سيدي بصمته البليغ كان يقول له ولنا بصوت عالٍ كالرعد «لا كلام جديد مع مَن رفض واستهان بكلامي الأول»!!

ألا يحمل لنا سكوت السيد درساً مهماً في أيامنا هذه؟! ألا نختبر كثيراً صمت السماء عن كلام جديد والسبب أننا لم نكن أمناء بما يكفي في الكلام الأول الذي قيل لنا؟! ولكن لهذا حديثاً آخر (يتبع)

بلاغة السكوت (٨)

«فقال لهم يسوع: ولا أنا أقول لكم بأي سلطان أفعل هذا» (لو ٢٠: ٨)

ليس بالضرورة أن يكون السكوت هو عدم النطق بأي كلام على الإطلاق لكنه أحياناً يكون عدم النطق بالكلام الذي يريد الآخرون أن يسمعوه!! في الموقف الذي أمامنا كان يسوع في الهيكل يعلِّم الشعب ويبشِّر فوقف رؤساء الكهنة والكتبة مع الشيوخ وسألوه قائلين «بأي سلطان تفعل هذا؟ أو مَن هو الذي أعطاك هذا السلطان؟» وبدلاً من أن يجيبهم الرب سألهم سؤالاً يحتاج إلى إجابة بكلمة واحدة «معمودية يوحنا من السماء كانت أم من الناس»؟ وعندما أجابوه بأنهم لا يعلمون من أين كانت معمودية يوحنا قرَّر يسوع أن يسكت ولا يجيبهم عن سؤالهم بل ويُزيد حيرتهم وجهلهم!!

ولكي نفهم بلاغة سكوت الرب في هذا الموقف لابد أن نرجع إلى إرسالية يوحنا ومعموديته، لقد أرسل الله يوحنا برسالة التوبة للشعب، ولم يؤيد الله يوحنا بأي سلطان ملموس مثل الآيات والمعجزات لأن رسالته تستمد سلطانها من الشريعة والناموس، فهو لم يأتي بأية تعاليم جديدة بل كان يدعو الشعب للعودة لتعاليم وسلوكيات الناموس، وحتى طقس المعمودية الذي مارسه لم يكن جديداً بالمرة بل هو مستمد من حادثة شفاء نعمان السرياني عندما أمره إليشع أن يغطس في نهر الأردن سبعة مرات فعاد لحمه كلحم صبي صغير، أراد يوحنا أن يستخدم نفس الممارسة لكي يطبع في ذهن الشعب أن خطاياهم تشبه البرص القاتل الذي ينبغي أن يتخلصوا منه بالتوبة لكي تسترد الأمة عافيتها وتعود لقوة ونقاء صباها وشبابها المبكِّر!!

السلطان الوحيد الذي صاحب إرسالية يوحنا كان سلطان تبكيت الروح القدس على نفوس الشعب، إذ يقول الكتاب «أن جميع الشعب إذ سمعوا والعشارين بـرَّروا الله معتمدين بمعمودية يوحنا» (لو ٧: ٢٩) لكن للأسف رغم هذا السلطان المؤثر ورغم الرسالة التي تستمد تأييدها من جوهر الناموس ولا تحتاج لأي تأييد خارجي إلا أن الكتاب يخبرنا «أما الفريسيون والناموسيون فرفضوا مشورة الله من جهة أنفسهم غير معتمدين منه» (لو ٧: ٣٠) كبرياء هذه الفئات من الشعب واعتدادهم ببرهم الذاتي جعلهم لا يخضعون لمعمودية يوحنا لأنها تحتِّم عليهم الاعتراف بأنهم خطاة يحتاجون للتطهير، ورغم أنهم لم يستطيعوا أن يتهموا يوحنا بأية تهمة ولم يتجاسروا أن يقولوا أن معموديته ليست من السماء إلا أنهم أيضاً لم يخضعوا لها!!

كانت خدمة يوحنا ومعموديته تمهيداً وإعداداً لخدمة يسوع وإرساليته، وكانت إرسالية يسوع مؤيدة بالآيات والعجائب لأنها تحتوي على تعاليم جديدة لا تستمد سلطانها من الناموس بل ترتفع فوقه بمراحل، ولكن رغم كل التأييد المعجزي لإرسالية الرب لم يخضع رؤساء الشعب لإرساليته، لأن رؤساء الشعب لم يقبلوا إرسالية يوحنا فكان لابد بالضرورة ألا يقبلوا إرسالية الرب المؤسَّسة على إرسالية يوحنا والمبنية عليها، رفض مشورة الله رغم وضوحها وتأثيرها يجعل الإنسان غير مؤهل لفهم أية مشورات جديدة، وعندما قرّر الرب أن يسكت ولا يجيب عن سؤال رؤساء الشعب كان يؤكد على الحقيقة التي تكلمنا عنها المرة السابقة ألا وهي: لا كلام جديد مع مَن رفض الكلام الأول، ولا فهم جديد لمشورات الله لمن رفض مشورة الله الأولى من جهة نفسه!!

كم هو مخيف ان تسكت السماء ولا تجيب على حيرة قلب الإنسان، كم هو مخيف أن يترك الله الإنسان يتخبط في جهله وظلمته لأنه رفض مشورة الله الأولى من جهة نفسه!! لا تسمح يا سيدي أن يأتي يوم أرفض فيه مشورتك من جهة نفسي، ولا تسمح أبداً أن يأتي يوم ترفض فيه أن تتكلم معي!! وللحديث بقية (يتبع)

بلاغة السكوت (٩)

«صمتُّ، لا أفتح فمي، لأنك أنت فعلتَ» (مز ٣٩: ٩)

اك دائماً وقت لسكب شكوانا أمام الله، في هذا الوقت يمكننا أن نقول ما نريد ونعرض وجهة نظرنا ونطالب بما نراه حقاً وعدلاً، في هذا الوقت تنسكب مشاعرنا أمام إلهنا وتنزرف دموعنا وقد يتعالى أنيننا وصراخنا، والكتاب المقدس يزخر بالكثير من هذه الأوقات في حياة رجال الله، بل أن الكثير من هذه الأوقات غيَّرت مجرى التاريخ وأحدثت انقلابا في الأحداث، ويكفينا مثالاً صلاة ربنا المعبود في بستان جثسيماني قبيل الصليب عندما قدَّم بصراخ شديد ودموع طلبات وتضرعات للقادر أن يخلِّصه من الموت، عندما صار عرقه [redacted] ينزل كقطرات دمٍ من شدة الصراع النفسي والروحي والجسدي الذي كان يجتازه، إن مثل هذه الأوقات رغم صعوبتها ستظل علامات فارقة في تاريخ البشرية جمعاء.

لكن هذا الوقت له حدود بعدها يقرر الله أن يصنع مشيئته الصالحة الكاملة المرضية في حياتنا، بعدما [redacted] استمع بكل محبته لما في قلوبنا تبقى الكلمة الأخيرة لشخصه لا سواه، وحينئذ تمتد يده لتُجري أحكامها وقضاءها في ظروفنا وأحداثنا، وهنا لابد أن يبدأ و ت آخر في حياتنا، وقت الصمت المقدس!! الصمت البليغ الذي يعلن أننا نقبل حكم الله وقضاءه في حياتنا، وأننا نثق تماماً في حكمته وعدالته مهما كانت وجهة نظرنا [redacted] في الأمور، نحن نشكر الله لأنه يعطينا وقتاً نعبِّر فيه عن مشاعرنا وأفكارنا لكن هذا لا يعني أن نتمسك بمشاعرنا وأفكارنا هذه حتى بعدما يُجري الله أحكاماً قد تختلف عما نريده مشاعرنا وأفكارنا!! هناك فرق كبير بين التعبير عن وجهة نظرنا أمام الله وبين أن نظل نتمسك بوجهة النظر هذه حتى بعدما يقرر الله شيئاً آخر، هناك فرق كبير بين أن نعبِّر عن مشاعرنا وبين أن نتشبث بها ونعتبر أنها الصواب المطلق، إن كل أفكارنا [redacted] ومشاعرنا محدودة وقاصرة جداً بطبعها الإنساني ولا يمكن أن ترتقي لترى الأمور في كمالها كما يراها الله، ورغم هذا القصور فان الله يحترم أفكارنا ومشاعرنا ويسمح لنا أن نعبِّر عنها ويستمع لها بصبر وأناة ولكنه في النهاية لابد أن يحكم بما يراه هو وليس بما نراه نحن، وفي هذا الوقت لابد أن نتعلم كيف نسكت ونقبل ما فعله الله ليس عن إحساس بالقهر بل عن ثقة أن ما فعله هو الحق المطلق والعدالة الكاملة!! وهذا هو المعنى الثالث لصمت الرب في وقت محاكمته:

† **ثالثاً: السكوت يعبِّر عن خضوع الابن لمشيئة الآب:** بعدما سكب ربنا مشاعره الإنسانية أمام الآب [redacted] في جثسيماني وصارع كثيراً في مدى إمكانية أن تعبر عنه هذه الكأس لكيلا يشربها، شعر في روحه أن وقت الصراع قد انتهى، وأن الآب قد أصدر حكماً بأن تكتمل أحداث الصليب وان يُسلَّم ربنا في أيدي الخطاة إلى الموت، هنا وجدنا ربنا المعبود ينهض من صلاته ويتقدم بثبات لكي يتناول ويشرب الكأس من يد أبيه بكل رضا وسرور، لقد انتهى وقت الكلام وجاء وقت السكوت الذي يعلن ثقة الابن في عدالة وحكمة الآب السماوي، لم يحاول الابن المبارك أن يتنصل من الصليب بعدما تأكد أن الآب هو الذي حكم له بالصليب، لقد صمت [redacted] ولم يفتح فاه لأن الآب قد فعل، لقد اعتبر ربنا أن أي كلمة سيقولها دفاعاً عن نفسه في وقت المحاكمة ستكون محاولة للهروب من مشيئة أبيه، وهو الأمر الذي لا يريده بالمرة، ولذلك قرر أن يسكت كالنعجة الصامتة أمام جازيها فلم يفتح فاه!!

ليتنا نتعلم التمييز بين وقت الكلام وسكب الشكوى وبين وقت السكوت احتراماً لقضاء الله واحكامه!!

وللحديث بقية (يتبع)

بلاغة السكوت (١٠)

«يسكت في محبته» (صف٣: ١٧)

أحياناً يكون السكوت هو أبلغ تعبير عن المحبة!! عندما نسكت عن تذكير الآخرين بخطاياهم وتكرار لومهم على سقطات الماضي فنحن نعلن محبتنا لهم ونساعدهم على نسيان الماضي والنهوض من ضعفاته!!

للأسف نحن نميل بطبعنا إلى كثرة الكلام عن أخطاء وسلبيات الآخرين، أرجلنا سريعة إلى سفك الدم، نظن أنه بكثرة ذكر خطايا الآخرين نبرِّر أنفسنا!! وإن أخطأ إلينا أحدهم لا نكفُّ عن لومه وتقريعه وتذكيره دائماً بخطئه، وكثيراً ما كان سم الأصلال تحت ألسنتنا ونحن نتحدث عن ضعفات الآخرين ونقائصهم، كثيراً ما جرحنا الآخرين جروحاً غائرة بكلمات كان بإمكاننا أن نسكت عنها، وكثيراً ما منعنا نهوض البعض من ضعفهم لأننا دائماً نتكلم عنهم بسلبية ونذكِّرهم بفشلهم السابق.

ما هو الحل لكثرة كلامنا السلبي هذا؟! إنها المحبة ولا شيء آخر!! المحبة التي تعرف أن تستر كثرة من خطايا، المحبة التي إن وجدت أن الكلام لن يكون مفيداً للآخرين لا تنطق به، المحبة التي تتمنى للخاطئ أن يعود وللضعيف أن يقوى وللفاشل أن ينجح، المحبة التي تعرف متى توبِّخ المخطئ على خطئه ومتى سكت عن التوبيخ لكي تعطيه فرصة أن يخرج من ماضيه ويبدأ بداية جديدة، فكثرة التوبيخ قد تربط المخطئ بماضيه وتقيِّده وتمنعه من النهوض.

عندما عاد الابن الضال بعدما أنفق أموال أبيه بعيش مسرف وجدنا الأب يركض ويقع على عنقه ويقبِّله دون أن يوجه إليه أية كلمة!! لقد سكت الأب عن كلام كثير كان يمكن أن يقال، ما أكثر كلمات اللوم والتوبيخ التي يمكن أن تقال في موقف مثل هذا، ما أكثر الأسئلة المحرجة التي يمكن أن يوجهها الأب لابنه عن أين كان ومع من عاش وكيف خسر أمواله، وكل هذه الكلمات كان يمكن ادراجها تحت بند التأديب الأبوي وحق الأب في أن يعرف كل شيء عن ابنه وعن أمواله، لن يلوم أحد الأب إن نطق بكلمات شديدة وجارحة في هذا الموقف، لكن الأب الصالح قرَّر أن يسكت تماماً ولا يوجِّه لابنه كلمة واحدة، إنه سكوت المحبة الأكثر بلاغة من أية كلمات، لقد لاحظ الأب بنظرة محبته أن ابنه منهك ومتألم ولا يحتمل أي ألم إضافي فقرر أن يسكت لكي لا يزيد ألمه، ولقد لاحظ ثانياً أن ابنه قد أدرك خطأه وندم عليه فقرر أن يسكت عن لوم لن يضيف جديداً، ولاحظ ثالثاً أن ابنه العائد يتمنى أن يبدأ بداية جديدة ينسى فيها ماضيه الشائن فقرر أن يسكت لكي يساعده على النسيان!!

انكار بطرس في ليلة الصليب كان خطأ جسيم بلا شك، وما أكثر الكلمات التي يمكن أن تقال له بعد هذا السقوط المدوي، حتى أننا في أيامنا هذه لا نكف في أحاديثنا عن ذكر هذه الحادثة وتفنيدها من كل الجوانب، ولا نملُّ إطلاقاً في كل مواعظنا من التذكير بسقطة بطرس الشهيرة وبكائه المر، ومن حسن الحظ أن بطرس لم يقع بين أيدينا نحن في أيامنا الأخيرة هذه وإلا ما استطاع قط أن ينهض من سقطته!! لقد وقع بطرس بين يدي الرب الصالح الذي لم يذكر الكتاب أنه وجَّه إلى بطرس أية كلمة لوم أو عتاب على سقطته، بل لم يذكرها أمامه فيما بعد!! وكان هذا هو أكبر دافع لبطرس لكي ينسى فشله وينهض من سقطته ويعود إلى خدمته ويصير رسول المسيح وخادم كنيسة أورشليم الأمين، هل سألنا أنفسنا لماذا لم يذكر بطرس سقطته هذه في أيٍ من أحاديثه في سفر العمال أو رسائله الرعوية بعد ذلك؟! كيف استطاع أن ينفك من أسر الماضي ويسير للأمام ولا يعود يذكر سقوطه المؤلم؟! لقد نسي الماضي لأن الرب لم يذكره أمامه ولو بكلمة واحدة!! لقد سكت الرب في محبته لبطرس عن ذكر ضعفه وسقوطه فاستطاع بطرس أن ينساهما ويبدأ من جديد!! وللحديث بقية (يتبع)

بلاغة السكوت (١٢)

«الرب يقاتل عنكم وأنتم تصمتون» (خر١٤: ١٤)

«بالرجوع والسكون تخلصون، بالهدوء والطمأنينة تكون قوتكم» (أش٣٠: ١٥)

في بعض حروبنا الروحية يكون السكوت أحد الأسلحة المؤثرة في إحراز الانتصار!!

خاض موسى وهارون معركة طويلة لخلاص الشعب الإسرائيلي من تحت حكم فرعون مصر وخروجهم [redacted] لأرض الموعد، ولقد شهدت هذه المعركة مراحل كثيرة ولكل مرحلة أسلحتها المستخدمة، فقد كانت هناك مرحلة الإعلان المنطوق عن إله العبرانيين الذي يأمر بإطلاق سراح الإسرائيليين ليخرجوا ويعبدوه في أرض جديدة، [redacted] وفي هذه المرحلة كانت الضربات والعجائب التي أجراها الرب بأرض مصر هي السلاح المستخدم لإثبات صدق الإعلان الذي في فم موسى وهارون، وكان الهدف من هذه المرحلة أن يستجيب فرعون لأمر الرب ويخضع ويطلق الشعب، لكن الانتصار لم يُحسم في هذه المرحلة لأن فرعون اختار أن يعصى أمر الرب ويتمرد على سلطانه.

وهنا انتقلت الحرب إلى مرحلة أخرى وهي مرحلة التأديب والترويض لكبرياء فرعون وقادته وجنوده، فإذا كانت الضربات التسعة الأولى هدفها تأكيد الإعلان الذي في فم موسى إلا أن الضربة العاشرة شهدت نقلة ـعية حيث كانت تهدف إلى تأديب فرعون على ما فعله ببني إسرائيل في عبوديته القاسية، الضربات التسعة [redacted] أظهرت سلطان الرب على الطبيعة المحيطة بفرعون أما الضربة العاشرة فأظهرت سلطان الرب على بيت فرعون وحياته وحياة أسرته، الضربات التسعة كانت قابلة للرفع إذا تجاوب فرعون معها لكن الضربة العاشرة كانت قاصمة غير قابلة للرفع!!

وبعد أن سمح فرعون تحت تأثير الضربة العاشرة بخروج الشعب، وبعد أن اعتقد موسى وشعبه أن الحرب قد انتهت، فوجئ الجميع أن الحرب مازالت في أوجها!! وجد الشعب نفسه محصوراً بين البحر من ناحية وجيش فرعون من الناحية الأخرى، لقد سمح الرب لفرعون أن يتمرد مرة أخرى على سلطان الله وإرادته ويراهن في هذه المرة على قوته العسكرية في مواجهة قوات ـب الجنود، كان الرب يريد أن ينقل الحرب مع فرعون إلى مرحلة أخيرة هي مرحلة العقاب الشامل والنهائي، مرحلة يعرف فيها فرعون معنى الغرق في أعماق البحر مثلما فعل بأبناء الإسرائيليين، فالعقاب يكون غالباً من نفس جنس العمل!!

ـي كل هذه المراحل كان الدور الوحيد المطلوب من الشعب لإحراز الانتصار هو «الصمت»!! كان دور الرب أن يقاتل عنهم وكان دورهم أن يصمتوا!! الصمت الإيجابي الذي يعطي للرب فرصته الكاملة لإظهار قوته وبره في مواجهة قسوة وشر فرعون، الصمت المعبِّر عن التواضع والاعتراف بأن الحرب أكبر [redacted] منهم ومن قدرتهم على الفهم، الصمت المملوء بالإيمان بكفاية الرب على حسم المعركة لصالحهم، ولا شك أن صمتهم كان سيجعل الحرب أكثر سهولة على موسى وهرون، صمتهم كان سيمنح موسى صفاء الذهن وسكون النفس الذي يجعله أكثر قدرة على التركيز والاستماع للرب ومعرفة مشيئته.

لكن يبدو أن السكوت أمراً في منتهى الصعوبة على الإنسان!! لقد أبى الشعب إلا أن يملأ الدنيا ضجيجاً وشكوى، وفي كل مراحل الحرب كان على موسى أن يواجه بمفرده شر فرعون من ناحية وتذمر [redacted] الشعب من الناحية الأخرى، لقد أحاطوا ذهن موسى بأسئلة لا إجابات لها ووضعوا في طريقه عراقيل لا يملك لها حلاً، بعدم صمتهم وضعوا على كاهله حملاً ثقيلاً تنوء تحته الجبال، وللحديث بقية (يتبع)

بلاغة السكوت (١٣)

«جيد أن ينتظر الإنسان ويتوقع بسكوت خلاص الرب، جيد للرجل أن يحمل النير في صباه، يجلس وحده ويسكت لأنه قد وضعه عليه» (مراثي٣: ٢٦-٢٨)

أحياناً يكون السكوت عن الشكوى هو علامة نضج لشخصية الخادم، فكثيراً ما كانت ظروف وطبيعة الخدمة التي يضعها الرب على كاهلنا مؤلمة وصعبة، ولو استسلم الخادم للشكوى والتذمر ومقارنة نفسه بالآخرين فلن يستطيع القيام بخدمته، بل تكون الشكوى في هذه الحالة علامة على عدم نضج الخادم وعدم قدرته على تحمل المسئولية.

أكثر رجال الله تحملاً للألم بسبب خدمته كان أرميا بلا منازع، كانت حياته كلها سلسلة متصلة من الآلام، دعاه الرب للخدمة وهو بعد صبي صغير لا يزيد عن العشرين سنة، وبينما كان جميع أقرانه يستقبلون الحياة بصدر رحب وأذرع مفتوحة كان هو ينحني بكتفيه تحت نير ثقيل، نير الرسالة التي وضعها عليه الرب والتي ستضعه في مواجهة صادمة مع كل فئات المجتمع اليهودي آنذاك، كانت الرسالة التي في فمه رسالة قضاء ودينونة لكل فئات الشعب، وكانت نبواته تنذر بالخراب والسبي الوشيك، أبغضه إخوته بنو أمه وتآمروا عليه (أر١٢: ٦) أبغضه الكهنة زملاء مهنته وطالبوا بعزله من الخدمة وعقابه (أر ٢٠، ٢٦) أبغضه الملوك وقادة الجيش ونكّلوا به مرات عديدة (أر٣٧: ١٥) حتى أن الفئة الوحيدة التي عاملته باحترام كانت فئة البابليين الغزاة!!

وقد واجه أرميا كل هذه الظروف المضادة بالسكوت البليغ!! كان رجلاً في تحمُّله للمسئولية، كان في كل مراحل خدمته ينتظر بصبر ويتوقع بسكوت خلاص الرب، كان قابلاً للجلوس دائماً وحده بلا شريك أو معين، أمره الرب ألا يتزوج ولا يكون له بنين أو بنات (أر١٦: ١) قضى حياته منبوذاً من شعبه ومات غريباً في أرض مصر على غير إرادته!!

ولو أضفنا إلى كل هذه المعاناة طبيعة أرميا النفسية لوجدنا هذه الآلام تتضاعف عدة مرات!! فطبيعة أرميا النفسية التي نفهمها من الوحي المقدس كانت طبيعة شديدة الحساسية مليئة بفيض من المشاعر الرقيقة تجاه كل افراد شعبه، كان انساناً مرهف الحس كثير البكاء، كان شخصيته أقرب للشاعر الأديب منها للمقاتل الصنديد، ولو نظرنا لسفر المراثي في لغته الأصلية لوجدناه مكتوباً بصيغة شعرية غاية في الروعة والجمال، مما يدفعنا للتساؤل: ما علاقة هذا الشاعر الرقيق بكل هذه الحروب والآلام؟!

والإصحاح الثالث في سفر المراثي هو قصيدة شعرية كتبها أرميا عن معاناته هو الشخصية، لقد رثى في كل كتاباته جميع فئات الشعب ولكنه في هذا الإصحاح الفريد يرثي نفسه!! يسترجع في نهاية حياته التي قاربت على الثمانين ما تألم به منذ صباه، وفي هذه المرثاة الجميلة يكشف لنا أرميا عن سر سكوته طوال حياته، كيف لم يملأ الدنيا ضجيجاً وشكوى من الظلم الذي يتعرض له، وكـ ، السر هو أنه أحب الرب ووثق في أمانته الكثيرة، قبِل النير من يده وأراد أن يتمم مشيئته للنهاية، كان يردد دائماً في قلبه أنه من إحسانات الرب أننا لم نفن لأن مراحمه لا تزول، في كل صباح كان ينتظر مراحم جديدة لأنه يؤمن أن السيد لا يرفض إلى الأبد وأنه ولو أحزن يعود يرحم حسب كثرة رحمته!!

ليتك يا سيدي تصنع في حياتي رجلاً ناضجاً يحمل النير بصمت ويتوقع بسكوت خلاصك القريب، وللحديث بقية (يتبع)

بلاغة السكوت (١٤)

«لكي يستد كل فم أمامه ويصير كل العالم تحت قصاص من الله» (رو٣: ١٩)

«فقال له: يا صاحب، كيف دخلت إلى هنا وليس عليك لباس العرس؟! فسكت» (مت٢٢: ١٢)

لعلها حالة السكوت البليغ الوحيدة في الكتاب المقدس التي لا أتمناها لنفسي ولا لقارئي العزيز!! عندما يسأل الله عن سبب عدم قبول الإنسان للنعمة المجانية فلا يجد الإنسان إجابة ولا يستطيع أن يرد ولا بكلمة واحدة!!

الإنسان بطبعه فصيح جداً في دفاعه عن نفسه ويستثمر كل طاقاته اللغوية والبلاغية والشعورية لتبرئة نفسه واكتساب رضا الناس وتعاطفهم، ـن نعرف جيداً كيف نقلب الحقائق ونلفق الأكاذيب ونخترع التفاصيل حتى نتنصل من المسئولية ونبرِّر أنفسنا من الذنب ونهرب من العقاب، حتى أن لكذب أصبح الصناعة الوحيدة التي نجيدها ونبرع بها، نكذب على الكل: على القريب والبعيد، على العدو والصديق، بل أحياناً كذب على أنفسنا!! نحن نفرح حين نشعر أننا كنا بارعين في الكذب على الآخرين لدرجة أننا أقنعناهم ببراءتنا واكتسبنا تعاطفهم، بل في بعض الأحيان نحن نبرع في الكذب والتمثيل لدرجة أننا نصدق أنفسنا ونتبرر في أعين ذواتنا!!

لكن ما لا يعرفه الإنسان أنه ستأتي لحظة لن يستطيع فيها أن يستخدم مهارته في المراوغة والتبرير، هناك سؤال لن يستطيع له إجابة وهناك إتهام لن يستطيع منه هروباً، وإذا أمكنه خداع الناس كلها فستأتي ساعة يقف فيها أمام من لا يمكن خداعه، وإذا عاش عمره كله يخادع ضميره ويقنع نفسه ببره الزائف فستأتي لحظة لن يستطيع أن يفعل هذا، ووقتها سيضطر الإنسان آسفاً –ربما لأول مرة – يسكت!! إنه سكوت العجز عن المراوغة والفشل في التبرير، سكوت الذهول عندما تتجلي الحقيقة في نور الإله الحق، سكوت الرعب عندما يرى أعماقه ودوافعه وأفكاره التي أخفاها عن الجميع عريانة ومكشوفة لعيني ذلك الذي معه أمرنا!!

أرسل الله الناموس للإنسان لكي يرشده إلى الطريق الصحيح للتمتع برضا الله وبركته، لكن الإنسان فشل في إلتزام هذا الطريق وحاد عنه، ولو حاكم الله الناس بحسب النـموس فلابد أن يستد كل فم أمامه ويصير كل العالم تحت قصاص من الله!! كن في ملء الزمان تدخلت النعمة في هذا المشهد البائس وظهر بر الله بدون الناموس مشهوداً له من الناموس والأنبياء، بر الله بالإيمان بيسوع المسيح، لقد قدم الله لنا عطية أن نصير متبررين مجاناً بنعمته بالفداء الذي بيسع المسيح، وأصبح من حق الإنسان الخاطئ أن يخلع ثياب نجاسته ويرتدي ثياب بر المسيح مجاناً، وعندئذ يصبح من حقه أن يدخل إلى الأقداس ويقف أمام الله ويحظى بكل القبول والرضا والحياة الأبدية، يالها من نعمة مجانية عظيمة!! لكن ما رأيكم فيما يستحقه الإنسان إذا رفض هذه النعمة ولم يقبل بر الله المُقدم له؟! وإذا كان الإنسان قد برَّر كسره للناموس بصعوبة الوصايا وقسوتها فبماذا يبرِّر رفضه للنعمة في لطفها ومجانيتها؟!

ولقد حكى لنا الرب هذه الحقائق ببساطة ي مَثَل الملك الذي صنع عرساً لإبنه وقال لعبيده أن يذهبوا إلى [redacted] مفارق الطرق ويدعوا كل من يجدوه إلى العرس، وأن يخلعوا عن المدعوين ثيابهم القذرة ويعطونهم مجاناً ثياب عرس تليق بالوجود في حضرة الملك، ولكننا نندهش عندما نجد إنساناً يقرر أن يرفض هذه الدعوة السخية ويحاول أن يدخل إلى حضرة الملك بثيابه القذرة رافضاً ثياب بر المسيح المقدمة له مجاناً!! لقد وجّه له الملك بكل وداعة السؤال الذي لا كن لإنسان أن يجيب عنه «يا صاحب، كيف دخلت إلى هنا وليس عليك ثياب العرس» ! وعندئذ سكت لأنه لا يمكن أن يجد الإنسان كلمات يبرر بها رفضه لنعمة الله المجانية، لِلأسف إنه السكوت الأخير الذي يعلن أن فرصة التواصل مع الله قد إنتهت إلى الأبد، وإن الإنسان ماضٍ إلى أرض السكوت الأبدي!! وللحديث بقية (يتبع)

بلاغة السكوت (١٥)

«ولما فتح الختم السابع حدث سكوت في السماء نحو نصف ساعة» (رؤ٨: ١)

بعدما   منا عن عدة حالات من السكوت البليغ في أرض الإنسان دعونا نختم هذه السلسلة بحالة [redacted] سكوت أخيرة سيكون مكانها هذه المرة في السماء، عند فتح الختم السابع والأخير وقبل انسكاب ويلات الأبواق السبعة على الأرض، وهذا التوقيت في السماء يتزامن مع بداية الضيقة العظيمة بتوقيت الأرض.

ـماء كان فيها عدة أصوات آن لها أن تسكت!! ولعل أول هذه الأصوات هو صوت المشتكي الذي [redacted] كان يشتكي على اخوتنا نهاراً وليلاً بلا توقف، صوت مزعج احتمله الله بصبر لسنوات طويلة وبطول أناة عظيمة، صوت قبيح دأب على تشويه صورة أبناء الله أمام عرش أبيهم، صوت كان يستعدي عليهم غضب الله وسخطه، في هذه اللحظة سيسكت هذا الصوت مرة وإلى الأبد، وفي هذا السكوت قمة البلاغة لأنه يعلن فشل شكاية العدو وانهزامه أمام اكتمال خطة الله في فداء وتبرير أبنائه، وهذا السكوت يُعلن أيضاً أن المشتكي [redacted] لم يعد له مكان في السماء وسيُطرح إلى الأرض، وهذا الطرح سيتزامن مع ويلات الأبواق السبعة التي ستسبب للأرض ضيقة عظيمة لم يكن مثلها منذ بدء الخليقة ولن يكون.

والسماء كان فيها صوت آخر آن له أيضاً أن يسكت، أنه صوت القديسين والشهداء الذين تألموا من الشر الموجود على الأرض ويصرخون أمام العرش طلباً للقصاص، لقد تأنى الرب كثيراً عليهم حتى تكتمل فرص النعمة التي يمنحها للأرض، ولكن مع بداية الأبواق السبعة يعلن الله أنه سيستجيب لكل صلوات ودموع [redacted] وصراخ عبيده المتألمين منذ بداية الخليقة، وسيكون في غضبه المنسكب على الأرض شفاء لكل جراحهم وأنينهم، وعند رؤيتهم لعدالة الله وعقابه ستسكت أصواتهم المطالبة بالقصاص مرة وإلى الأبد!!

لكن للأسف فإن أجمل الأصوات في السماء سيسكت أيضاً!! إنه صوت الشفيع العظيم الذي لم يكف لحظة عن شفاعته فينا وفي الأرض وحتى في الأشرار، أمام شكاية العدو الدائمة كانت هناك أيضاً شفاعة دائمة، ان الأرض والسماء الموجودة حالياً محفوظة بتلك الكلمة المتشفعة، ان ربنا المبارك هو الحامل لكل الأشياء بكلمة شفاعته المقتدرة، وأمام كل محاولة للمشتكي أن يقتل ويُهلك كانت هذه الشفاعة تعطي نجاة وفرص جديدة للحياة، وأمام كل أمر بقطع الشجرة غير المثمرة كان صوت المتشفع يمنحها سنة أخرى مقبولة!!

لكن في هذه اللحظة سيسكت هذا الصوت الجميل في السماء، سكوت بليغ يعلن كمال شفاعته ونجاح مقاصده، سيسكت بعدما نجحت شفاعته في خلاص شعبه ورفعهم للمجد وبعدما رفضت الأرض آخر فرص نعمته الممنوحة لها، سيسكت صوت شفيعنا المبارك بعدما أتم عمله بنجاح باهر وأصبح من حقه أن يستريح ويبدأ احتفاله بزفافه إلى عروسه المزينة التي اشتراها بدمه وجمعها من كل قبيلة وأمة وشعب ولسان، سيسكت أجمل الأصوات التي سمعتها السماء على الإطلاق لكن لكي يبدأ بعدها بقليل صوت الفرح والإبتهاج والتهليل الأبدي الذي لن ينتهي إلى الأبد!! إنها نصف ساعة من السكوت في السماء لكنه سكوت بليغ تقشعر من معانيه الأبدان!! (تمت)